وفاءً لذكرى رحيله الخامسة والعشرين .. الغيضة في قلب المحضار شعراً ونبضاً ووجداناً

نسج الشاعر المحضار من خيوط وفائه روائع غنائية ستظل عالقة في ذاكرة الجنوب زمناً طويلاً

الأمناء / كتب: صالح حسين الفردي

خمســة وعشرون عاماً مضت على رحيل عملاق الأغنيــة الحضرميّة شــعراً ولحناً حســين أبي بكر المحضار (يرحمه الله) ســنوات من الفقد النبيل لهذه الظاهرة الشــعريّة والفنيّة والإنســانية التي رفدت الحياة الثقافية والأدبيــة والفنيّة والمسرحية بالعديد من الروائع الغنائية والأوبريتات الاجتماعية والعادات والتقاليد والمحطات التاريخية، التي شــكّلت ظاهرة عابرة للأزمنة، واليوم ونحن نحاول أن نقدّم باقة وفاء لهذه القامة الشعريّة واللحنيّة التي نسجت خواطرنا وعواطفنا لعقود خلــت، نجدها فرصة في صحيفتنا (الأمناء) أن نفرد هذه المســاحة لنقف عند مقاربته الشعرية والعشــقيّة لهذه الجغرافيا الجنوبية، وفي القلب منها محافظة المهرة، وعاصمتها الغيضة.

سوف نقف في هذه الســانحة الثقافية في قلب عاصمة المهرة النابض مدينة الغيضة لنتأمل تفاصيل عشق ليس كمثله عشق، عشقٌ نسج من خيوط وفائه شاعرنا وملحننا الكبير حسين أبوبكر المحضار روائعَ غنائيةً جميلة، ســتظل عالقة في ذاكرة الجنوب زمناً طويلاً.

فالشاعر والملحن الكبير حسين أبي بكر المحضار كعادته في عشــقه لتراب أرضه ووطنه، وتغنيه بكل مدينة ووادٍ، ووصفه لكل قرية وشعب وجبل وساحل بحر ويابسةٍ بر، كما أنشد ذات مرة:

أمي الشــحر والوالد جبل ضبضّب ** وابني الحيد لسود وابنتي ضبه

كــل ما جيتهم قالوا هَلا مَرْحب ** عش هنــا بيننــا لا تنزل الرحبه

هذا البوح الوجداني لمســقط راسه ومدينة صباه وكنان رحلة عمــره وإبداعه لأكثر من نصف قرن من الزمان، حين أراد أن يصوّر حنينــه لكل تراب الوطن الجنوبي نجده يماثل بين الوالد ضبب جبله الشــامخ والأشــم، وجبله المدى الوطني العميق شمســان في رائعته الغنائية:

دعوة الأوطان * حين يدعيــك ضبضب * أو جبل شمسان

استجب بالآن * يا فؤادي المعذّب * سيبك النسيان

حبّ في القلب راســخ * للجبال الشــوامخ * لي تربيت فيها

وانقضى لك بها شان ** حان الوفاء حان

وهنــا نلحظ كيف اســتطاع الشــاعر العبقري المحضار، أن يجعل من ضبضب وشمســان في مكانة واحدة في قلبه المحبّ لوطنه، حين همس:

حبّ في القلب راســخ * للجبال الشــوامخ * لي تربيت فيها

وانقضى لك بها شان ** حان الوفاء حان

فهي راســخة في القلب، ويعتدّ ويعتز بشموخها، كيف لا، وهي التي تربّى فيها وعاش، ونال كلما يرمي إليه من أمنيات في القلب، وشأنٍ في الحياة.

فبمثل هذه الــرّوح العاشــقة، والرؤية العميقة لكل تفاصيل الوطن، خصّ شــاعرنا الكبير المحضار غيضــة المهرة بنصــين غنائيين بديعــين في رحلته الشــعرية واللحنية التي بدأت مع نهاية خمسينيات القرن الماضي، وأثبتهما في ديوانه الثاني (ابتسامات العشّــاق) الصادر في نهاية الثمانينيات، إذ بدأ الأولى بهمس العاشق المدنف:

مشــتاقين * للربــع في الغيضه مشــتاقين * مرتاحــين * أو بعدنا هم غير مرتاحين * شــوفوهم وتخبروا عنهم * زوروهم لمّا أماكنهم **قالوا حولهم زهر ورياحين * مشتاقين

فنــصّ مشــتاقين ومتنه الشــعري والجمالي - كما يبدو - كان بطاقة عشــق ولــه لمدينة الغيضة، التي كانت - في ســبعينياتِ القرن الماضي - قمقماً أســطورياً غرائبياً، زاده غموضاً بعد المسافات وعدم توفّر خطوط تماس إنساني بين الشاعر وتلك الربوع التي رسم لها شاعرنا المحضار لوحة حميمة خاصة، عندما انطلق بخياله إلى فضاءات من البوح النبيل لينســج صوراً شــعرية جميلة توحي بمدى شــفافية روحه وقدرته على فك شــفرات المدن التي يعشقها عن بعد، والتحامه النوراني بهــا وترتيله جملاً شــعرية وألحاناً شجية عذبة، وقد جعل الشاعر الكبير المحضــار من النصّين متناً شــعرياً، وفضاء مكانيّاً روحيّاً متكاملاً، يدفعه إلى هذه الفضاءات الشــوق العميق للاقتراب من هذه المدينــة - الحلم - فقد رحل شــاعرنا بخياله مســتحثاً (الطيّار) أن يخّف الســوق، فالشوق في صدره لا يطاق:

خفّ الســوق بالله يا طيّار * خفّ السوق * نار الشــوق ما شي كماها نار * نار الشــوق * طمنهم بالوصل طمنهم * لا تشــطن نحن وتشطنهم * ما معهــم بالوصل علــم يقين ** مشتاقين

هذه الأشــواق - المتخيلة - التي تلهب ناراً في دواخل شاعرنا المحضار، نســج منها رائعتيه اللتين جعلتا من مدينة الغيضة حديث الناس في داخل الوطن وخارجه، فهو خير من يروِّج لمدنه الملهمة، وخير من يهمس لناسه الطيبين، وخير من يرصد حال الأرض والإنسان برقة متناهية وعشق يقين، فقد أكمل هذاً النــص بوصفه لوادي الغيضــة الخصب المخــضر الغزير الأمطار، فجال بخاطره ليصف جمال هذه الأرض الطيبــة، فالفيضة هي خلاصــة الخلاصة للجميلــة الفاتنة المهرة: ذاكراً أجمــل ما تحمله أرضها في روح ملتصقــة بترابهــا النــدي المعطــاء: واصفاً (الطير، الشــجر، المزارع، والراعــي والراعية، والبوش تتبعهم، فنتأمل بوحه:

وادي الخير لاخصبت أمطاره يلقي خير * غنى الطير عاروس أشجاره * غنى الطير والزراع زانت مزارعهم * والرعيان والبوش تتبعهم * ياكم من بكره تحن حنين ** مشتاقين

ولا يكتفي المحضار بهذا البوح التشكيلي -إن جاز التعبير - لجمال هذه الأرض، وعنفوان أهلها وناسها الكرام، فيهمس لنا بعشــقٍ رقيق لكــم من زين -ما عــاد بعده زين - فهو زينٍ صعب المنال، قصرت بنادق القناصة في صيده، والعشّــاق الكــثر عادوا بخفي حُنين:

لو لك عين تنظر وعول الواد * لو لك عين * كم من زين من بعدهم ماعاد * بعــده زين * قناصه قصرت بنادقهم * وان كذبوا محــد يصدقهم * من يقدر في حامل اثمانين ** مشتاقين

ليضعنــا المحضار أمام غيضــة صعبة المراس، لا تسند ظهرها إلا لمنٍ يعشقها حدّ الثمالة، وتنفر ممن يحاول صيدها عنوةً، وفي لحظة مباهاة أو طيش، ألم يقل بثقة بغيضته الراسخة:

يشرب يوم من عده الهاني * ويغب يوم *» ماشي لوم لو سرت له عاني * ماشي لوم * كم عشــاق من قبلك أتعبهم * والعشــاق وعره مداهبهم * لا تحسبه حبحب على السكين * مشتاقين .

أما في نصّه الثاني والذي وسمه بـ(الغيضة) في ديوانه ابتسامات العشّــاق، يبدأ بجملة دالة على ما ذهبنا إليه من اســتحالة قنص زين الغيضة، والايقاع به، في دلالــة لا تخفى على لبيب باعتداد هذه الأرض وسمو ونبل أخلاقها، ومن هنا جاء قوله في تخميسة النصّ الثاني التي يتكرر بعد كل مقطع شعري -مكملاً -ما ختم به الأول:

مقاربة شعرية وعشقيّة للمحضار لقلب الجغرافيا الجنوبية عاصمة المهرة «الغيضة»

طريق أهل الهــوى كلها نوف ** ولا جاذب قريبه ولا حوف

فجاذب وحوف من مناطق الغيضة – المتلاصقتان -، لكن لــدى المحبّ المحضار دونهما البعد والنوف، أي الانحدار، المميت، لكن شاعرنا وقد أنس لرغبةٍ غيضته في زيارته -المتخيلة -الثانية همس متسائلاً:

وشكم بعد غيبتكم ** يا حلان في الغيضه

وصفوا الناس طيبتكم ** وأياديكم البيضاء

قالــوا كل شي عندكم زين ** قالوا في ثراكم دواء العين

** ونا محروم حتى من الشوف

لنرى كيف تلاعب بنــا المحضار في وصفه لطيبة أهل الغيضة وكرمهــم الحاتمي، أياديكــم البيضاء، وتعميمه للجمال -كل شي زين -في حياة هذه المدينة الرمز، ففي ثراهــا دواء العين الحفيّة، ولكن المحضار لا يغفل أن يضعنا أما حقيقة قوتها التي تســتمدها من كل هذه المعاني الإنســانية النبيلة، فهو عاشقها المحرومٍ حتىٍ من الشوف على الرغم من كونه عاشقاً متميماً دنفاً بحبها ونبيل فيما يرغب ويهوى ويعشق.

إن تجربة الشاعر الكبير حسين أبي بكر المحضار في اقترابه من مدن عدة، تشي بمدى عشق ووله هذا الشّــاعر بالأمكنة، وذوبانه فيٍ تفاصيلها، فهو راصدٌ ذكيٌّ لملامح هذه المواضع، وفنانٌ تســجيليٌّ من نوع فريدٍ ونادر، إذ أنه، كما يبدو، وجد في تفاصيل مسقطً رأسهٍ مدينًة ســعاد الشــحر متعة لا تضاهى، فهي المدينــة العابقة بالتاريخ والتراث والروح الإنســانية في بكارتها الأولى، ففي هــذه المدينة التي احتضنته وتجربته الفنية كان عشــقه للمكان قد بلغ به مبلغاً كبيراً لا يســتطيع أن ينفك منه ويميل عنه، فظلت الشحر- هي سعاد الهوى والروح والقلب - من هنا تحولت الكثير من المدن التي زارها أو مرّ بها أو تتبع أخبارها خيالاً يثري لديه التجربة الشــعرية فيشــحذها بحرارة مــن روحه، وظلت الشــحر فاتنته التي لا يســتطيع البعاد عنها ألم يقل:

قريب با بدّل بداري دار ** معموره وديره غير دي الديره

لكن قلبي ما رضي يختار ** غير الشحر لا وليته الخيره

حبه وتقديره ** لها من ســمح ولها العز والمقدار

دار الفلك دار وعزمت الســفر ** دار الفلك دار

فـ (سعاده الشحرية) استطاعت أن تتحول إلى ذات رقيقة يجد عندها ســلوته وراحته ومتعته، وفي بعدها شــوقه ولوعته وتعبه، من هنا كان شــاعرنا يذهب في ملامسته للمدن برقة العاشق وتساؤلات المعاتب، ولم تخرج مدينة الغيضة عن هذا المســلك الشعري النبيل، ففي رحلتيه المتخيلة لها، وبعد أن بــدأ نصّه الثاني (طريق أهل الهوى نوف)، متسائلاً في المقطع الشعريٍ الأول: وشــكم بعد غيبتكم، جاعــلاً من هــذا المفتتــح الحواري منطلقاً لبث شــكواه وعتابه وأمانيه، إذ نجده بعد وقفة العتاب العجلي بينه وغيضته الحميمة، يلتمس اللقاء في تمنٍ رائق دون تكلّــف أو ضوضاءٍ لا تليقً بحالًة الوجد التيً في داخله:

ودّي نلتقي معكم ** لا ربشه ولا فوضى

بــداوه عاســجيتكم ** عرب ما نعرف الموضه

ولكــن الفرص ما يســنحين ** وأحوال الزمن ما يتمين

** لقن في وسط ظهر الجمل سوف

في هذا المقطع الثاني، نلمح كيف عرض المحضار لرغبتهِ في اللقاء، وكيف قدّم اعتذاره عن البعد والفراق، محملاً الزمن وأحواله المتقلبة السبب الرئيس، فأمنياته باللقاء بعد غيبة طويلة، وبعد أن بلغت به جراح البعد ما يبلغه الزمن من ســوف (جرح لا يندمل)، في ظهر الجمل الصبور، فعند هذه الصورة لا يســتقيم اللقاء الذي جاد به الزمن إلا وفق رؤية العاشــق (لقاءٌ خالٍ من الربشة والفوضى) فالسكينة والهدوء مطلوبتانٌ - لحظتئذ - ونلحظ جمال موسيقى الشعر وتقطيعه بين (فــوضى وصداها موضــه) والإطلاق في حرف الروي في (فوضى) الذي يســتقر عند (هاء) الموضة الســاكنة، بما تحمله اللفظتان مــن عبثية تصاحب ظواهر الموضة وحالات التقليد، وبين أنين الموسيقى في (ما يســنحين، ومــا يتمين) بمــا تحملانه من اضطراب نفسي للذات الشعرية لعدم اكتمال الفرص وإتمامها، من هنا كانت (ســوف) الجارحة هي المآل الذي وقعت فيه تلك الذات، ولطبيعة الأرض الغيضية، يرسم الشــاعرِ المحضار لوحته، مجسداً سمة العطاء الوفير، وراصداً لما تتمتع به هذه المدينة من مزية تؤكد قوله (أياديكم البيضاء) إذ يقول:

تلقي زرع جربتكم ** طمث عالحرث والروضه

ونا قسمي بذمتكم ** رموا لي قسم في غوضه

ولو تبغون في القرص ميتين ** أنا ما باه قرضه ولا دين

** ثقوا واستأمنوا ليش ذا الخوف